العدد (1852) السنة السابعة - الأثنين (19) تموز 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

معالم المدرسة الفكرية والفقهية للمرجع العلامة السيد محمد حسين فضل اللّه

عباس البياتي
العراق

برحيل المرجع والمفكر السيد محمد حسين فضل اللّه تخسر الساحة الفكرية والفقهية الاسلامية مفكرا ثرا وغزيرا في العطاء ومتنوع الاهتمامات وفقيهاً جسورا ومجددا لم يك يتردد في اقتحام مساحات غير محروثة وطرق ابواب موصدة، وتلمس الطرق الوعرة والمسالك الصعبة، وبرحيله تنطوي مرحلة تاريخية كان للسيد فضل اللّه فيها الريادة في التنظير الحركي والتنوير الفكري والانبعاث الاسلامي، وهو آخر الاطواد من جيل نذرت نفسه للمشروع الاسلامي فكرا وحركة وتنظيما وكان - المشروع - في حينه في بواكيره وبداياته الجنينية.

وان إسهامات السيد فضل الله الفكرية توزعت على عدة ابواب كان له فيها اضافات ومبادرات وفتح عبرها ومن خلالها ابوابا جديدة واعاد الفهم والصياغة لاحكام ومقولات وقام بالمراجعة لاحداث تاريخية وحاول ان يثير الاهتمام والسؤال عن المتوارث والمنقول وضرورة تقييم ذلك بميزان العقل.

وكان الراحل الكبير مدرسة متميزة حاولت ان تشقّ لها طريقا مغايرا خارج المألوف ولم يكن ذلك أمراً يسيرا في الاجواء التي كان يتحرك فيها بل واجه حملات مضادة ومعارك امتدت الى اكثر من ساحة لمجرد رأي او اثارة سؤال في حدث وليس بسبب حكم احدثه او كتب بدله .

وان من اهم معالم المدرسة الفكرية والفقهية للسيد فضل الله هي:

١- الواقعية : كان الواقع بالنسبة للسيد فضل الله الوسط الذي يأخذ منه ويعطيه في تفاعل وصيرورة و لم يكن في معالجته الفكرية والمعرفية يناقش بشكل تجريدي خيالي حالم كطريقة اغلب المفكرين والفلاسفة الذين لا يخرجون من صومعتهم ولا يغادرون مكاتبهم ،وكان يكتب للواقع ويواجه تحدياته ويعالج ثغراته ويناقش من وحي الواقع وكان يختلف عن كثير من المفكرين والعلماء الذين كانوا يكتبون من وحي التأمل الذي لا يلامس الواقع الا بشكل عرضي عابر استنادا الى ما في بطون الكتب وليس اعتمادا على مافي عمق الواقع الحي النابض والمتغير والمتدفق، كان واقعيا وموضوعيا في المعالجة والفهم والتصور .

٢- الحركية :السيد فضل الله يؤمن بحركية الاسلام وعدم جموده، والحركية التي تعني عنده القدرة على التطبيق والقابلية على التنفيذ والمرونة في التعاطي مع الاحداث والوقائع والاستيعاب للمتغيرات والحيوية والانبساط والحياة والتجدد وليس الانغلاق والانطواء ، والحركية تعني الامتداد الى حيث تمتد الحياة والانسان زمانا ومكاناً وحاجات واهتمامات.

٣-لمعاصرة : السيد فضل الله عاش بالاسلام عصره منفتحا عليه ومقبلا اليه ومنسجما معه ، واستفاد من النتاجات الانسانية وحاور المنهاج والمدارس الفكرية المختلفة وفتح الاسلام على العصر وفتح العصر على الاسلام ،المعاصرة بالنسبة لفضل الله الهواء والماء الذي لا يستطيع بدونه الانسان الحياة ، وقد اراد للانسان ان يعيش عصره بالاسلام غير متردد ولا منفصم وخائف وان لا يكون غريبا على عصره ومتبرما منه او كافرا به او مهاجرا عنه كما دعت بعض الحركات الاسلامية المتطرفة ، اراد السيد ان يحاور عصره ويأخذ منه ويعطيه في إنسجام وتكامل في اطار الاسلام وان المعاصرة ليس الانفصال والهجرة،او الابتعاد والانزواء ، بل التفاعل والمواكبة والقدرة على المواصلة وتوليد الاجوبة لسيل الاسئلة التي يطرحها العصر وتطور الحياة وتقدمها.

٤- التغييرية : كان السيد فضل يتطلع الى تغيير الحياة والمجتمع والانسان على اساس مشروع متكامل الجوانب تلتقي فيه الخيوط في تناسق تام لم يك يكتفي بالوعظ والارشاد الاخلاقي او اسقاط الواجب بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر بحدوده الفردية والجزئية بل كان يخاطب بالتغيير لكل مفصل من مفاصل الحياة والمجتمع، والتغييرية لم تكن عنده تستند الى الفكر فحسب وان كانت قاعدته الرئيسية بل كانت مؤسسات وحركات تعزز البرنامج وتستلهم رؤاه.

٥- الاصالة : الاصالة عند السيد فضل الله ليست التجمد على ما ورد من السلف بل عدم الخروج على الصحيح مما ورد من السلف من ثوابت العقيدة والقواعد والاحكام،وعليه ليست كل ما ورد من السلف لا يمكن محاكمته و كان السيد لا يؤمن بالاصالة بمعنى التقليد والجمود والترديد من دون اعادة فهم وصياغة. الاصالة لديه ليست الانسياق بل الاخذ بوعي وترك عن دراية .

٦- الجرأة : السيد فضل الله يتمتع بجرأة كبيرة وشجاعة جعلته لا يتردد في المجاهرة بآرائه خلاف المألوف والمتداول طالما قادته قناعته الفكرية الى ذلك، وقد خاض في مجالات فكرية وفقهية وتاريخية اثارت عليه ردود فعل كثيرة لم يأبه لها بل اصر وواصل حتى خمدت العاصفة وبقي رأيه صامدا يحث الآخرين على التفكير والجدية في التقييم،ولم يتوقف.

٧- العالمية: السيد فضل الله لم يحشر نفسه في مساحة ولم يؤطر اهتمامه بجماعة بل كان انساني الاهتمام والموقف وعالمي التوجه والنزعة ، وكانت حاضرة عنده قضايا المسلمين وغيرهم يوليها الرعاية والاهتمام و المعالجة ويسلط عليها الاضواء في خطبه بل لا يترك أمرا يمر دون ان يسجل موقفه منه ويبدي رأيه فيه،وكان يتحرك في كل دائرة تتحرك فيها قضايا الانسان المعاصر سياسيا واجتماعيا ومعرفيا واقتصاديا .

ونتوقف عند ثلاث دوائر من نتاجاته الفكرية والفقهية التي ابدع فيها وجدد في جوانب منها وهي:

أولا / في الفقه الاسلامي

ان الفقه الاسلامي الذي يعنى بالفروع والاحكام الشرعية وقد كان للسيد فضل الله اسلوبه الخاص في تناوله فهما وطرحا ومعالجة وذهنية متفتحة حيث كان يتعامل مع النص وإيحاءاته من غير تحميل او تطويع، بل النص وما ينضح منه ويعطيه، وقد لجأ السيد الى التبسيط وعدم التشديد وتجنب التوقف والاحتياطات وإعادة النظر في فهم الكثير من الاحكام وطرح مفاهيم جديدة تستند إلى علم اهل الاختصاص من الاطباء والعلماء والخبراء حيث وسع من دائرة الاستفادة من اهل الخبرة العلمية الاختصاصية بالعلوم الطبيعية في تحديد مواضيع الاحكام كل في مجال اختصاصه اي انه الى جانب العرف الذي كان يعد من المحددات والمفسرات كان لاهل الاختصاص مساحة واسعة وتدخل في اعادة صياغة الحكم الشرعي كان يؤمن بالفقه للواقع والعصر وليس الفقه من اجل الفقه وكان يريد من الفقه ان يواكب الحياة باشكالاتها واسئلتها وحاجاتها وان يلاحق الانسان في اوضاعه واماكن ترحاله وعمله ونشاطه .

ان فقه السيد فضل الله فقه الانسان المعاصر وكان منفتحا ومتحررا في كل ذلك كان يحاول ان يوسع في القاعدة الفقهية ويطلقها في الافاق ان فقه السيد تميز باليسر وبالحركية التي تستند الى الاسلام الذي هو الشريعة السهلة السمحاء وان الفقه للحياة وليس مادة علمية لا يفهمها غير اصحاب الاختصاص ويحتاج الى التفسير،كما كان فقه الحركة اي ليس فقها جامداً على مرحلة تاريخية بل كان فقه يتحرك مع العصر ويسد الفراغات فيه ويحاول ان يدفع به الى المواكبة.

ثانيا / في تفسير القران :

في مجال تفسير القران الكريم كتب السيد فضل الله تفسيرا كاملا من هدي القران وهو تفسير باسلوب عصري ممتع ومشوق يحاول استنطاق الواقع على ضوء القران ، ويعد تفسيره من التفاسير الحركية التي يفتح النص القراني على الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ويجعل القران يتحرك مع الانسان في كل حركاته وسكناته، ويحرك العناصر في اسباب النزول الى الوقائع المعاصرة ، ويشكل دورة التفسير القرآني بمجلداته العشرين معينا ثقافيا وتاريخيا وفقهيا وحركيا لا ينضب .

ثالثا/ في الفكر الحركي :

يعد السيد فضل الله رائدا في الفكر الحركي المعاصر وصاحب مدرسة تخرج فيها مفكرون وعلماء وقادة سياسيون وان الفكر الحركي الذي بلوره السيد شكل ومازال جزءا مهما من المادة المعرفية والفكرية للحركات الاسلامية ،وهو يعد من المجددين والمؤصلين في الفكر الحركي وقد غرف منه كثيرون في أكثر من دولة اسلامية كما ونشأ وتأسس عليه وانطلاقا منه حركات واحزاب عديدة ومؤثرة في أكثر من ساحة وكانت لآرائه الحركية أصداء ليس في الواقع الاسلامي الشيعي بل حتى في الواقع الاسلامي السني ولعل من اهم كتبه في هذا الصدد خطوات على طريق الاسلام حيث حاول من خلاله ان يرسم الخط الحركي الذي يتميز به العمل الإسلامي عن غيره .ولديه عشرات من الكتب في هذا المجال بالإضافة إلى آلاف المحاضرات والندوات، وربما عرف بهذا الجانب أكثر من غيره من الجوانب المعرفية الأخرى وهو يعد من الرواد المنفردين فيه .

هذا مرور سريع وقراءة خاطفة للمعالم الفكرية والفقهية للمرجع العلامة السيد محمد حسين فضل الله ،وان الدراسة الشاملة والاحاطة الكاملة بهذه الشخصية الثرة تتطلب كتبا ومجلدات ، كما ان اثره سيمتد مع اجيال قادمة حيث كان شعلة الفكر الوضاءة التي أنارت الدرب لشعوب اسلامية عديدة وسيبقى مناراً خالدا في الفكر والحركة والتجديد.

فينيسيا الشرق : كلام الخيال

الدكتور مهدي صالح دوّاي

كثيرا" ما شدني الحماس لرؤية البصرة ، أو كما نعتت بفينيسيا الشرق، إلى أن تحققت رغبتي بزيارة البندقية، أو كما يطلق عليها بفينيسيا ، ذلك الأرخبيل الأدرياتيكي ذو المئة وعشرون جزيرة ، وإنها لمفارقة عجيبة أن يتحقق ماكان خيالا" ، وأتخيل ماكان حقيقة ، ولعل في هذا الأمر ماجعلني أكتر حماسا" في تخيلاتي نحو البصرة بعدما شاهدت التي يشبّهونها بها .

فبين أن تتخيل وترى مسافة تتحكم بطولها ثقافة المرء، ومضمون المكان ، فكثيرا" مايشدّ الرحال وتقطع آلاف الأميال لرؤية أثر حضاري ساكن ماديا" ، لا تتعدى مساحته الأمتار ، إلا انه يختصر الكثير من ثنائية الزمان والمكان التي تلف حياتنا ، ففينيسيا ، تلك المدينة المائية مازالت في ضيافة حواضرنا لتحكي لنا يوميا" طريقة بنائها ، ونمط حياتها ، ووسائط نقلها الخاصة ، وتفاصيل أخرى عديدة ، وعلى أرصفتها الخشبية تنهمر النظرات نحو لوحات طبيعية غارقة بمياه البحر ، وتحمل مراكبها يوميا ثقافات متنوعة بدياناتها وأزيائها ولغاتها ، فالمكان لاينبغي أن يكون عاديا" مادامت تفاصيله تقودك نحو مشاهدة التاريخ ، الذي تعودنا أن نتحسسه في بطون الكتب وأفواه الرواة ، فهل من ثوابت أقدارنا أن نعيش بأمجاد مواضينا ، ويتذكرنا الآخرون بأسماء مدننا وآثارنا المسروقة في متاحفهم ؟

يقولون في البصرة ملايين النخيل توشوش بسعفها على مئات الأنهار العذبة، أصغرها بويب العظيم، وتستريح إلى شطها كل الحضارات الأولى ، وتحمل طياتها الأقوات الوفيرة، وفي رفاتها آلاف من قصص المآثر والأمجاد، وفمها المفتوح يديم للعراق بقائه ، ولدت قبل بغداد وبكت فرحا" بالفتوحات ، وتحملت أحزان العراق . يقولون إنها كفينيسيا بسواقيها وجنادلها ، وكانت تنتهي إليها الرحلات طلبا" لعلمها واشراقة شمسها ، وتنطلق منها رحلات السندباد السبعة نحو بحار العالم ليتسلى بخيالاتها الكبار والصغار.

إنها عفوية مصنوعة بذكاء عال لايسيء لتاريخ فينيسيا الايطالية ، فتآكل الجدران وتصدعاتها جزء من التراث ، والأعمدة الخشبية الدالة قد غرست في الماء ببدائية جميلة ، وعشرات القناطر الخشبية توصلك بالماضي بسهولة ، في حين يغادر بك جندول بمجدافيه الخشبيين إلى حياة الارستقراطية الكلاسيكية ، فلا اثر لعوادم المحركات وزحمة النقل المعاصر ، الجميع يتعايشون بثقافاتهم مع المكان ، مدفوعون بما تمليه خيالاتهم من سلوكيات وحركات وأصوات تمنح المكان مشهدا" فسيفسائيا" يعزز من مكانة هذه المدينة الطافية ، انه استثمار بمذاق خاص للمكان ، فلا أدخنة مصانع تلوث الشهيق ، ولا أتربة طرقات تعيق الزفير .

سمعت أن انهر البصرة قللها الجفاف ، وعذوبة شطها تغير مذاقها ، وملايين نخيلها قد انحسرت ، وإطلالات شناشيلها قد تصدعت ، إلا أني مازلت أعايشها بذاكرة الخيال الخصب ، فالتمس لذلك أعذارا" وأعذارا ، فالجغرافية عصية على من يغيرها ، ولابد من إحيائها بما نملك من مقومات جمة ، فكم (بصرة)عندنا لنضحي بإحداها ، و أني لست أفضل الحريصين عليها ، بخاصة واني مازلت أتكلم بخيالي المتواضع دون أن أراها .

كنت ضيفا على فينيسيا ، ولابد أن تنتهي الأيام الثلاثة لإقامتي ، وهنالك الملايين مثلي أنفقوا فيها ، وتكلموا عنها ، وأرّخوا لها عبر التاريخ ، فأي عطاء تزخر به هذه المدينة على أهلها ؟ وأي كرم يغدق به أهلها عليها ؟ انها حميمية العلاقة مع ما مضى بكل مايحمل من تضاريس النجاح والفشل، فهي جزء من منظومة الحياة مهما طال بها الزمن ، وأصبح عتقها اكثر حضورا" وجذبا" من المدن المعاصرة ، فليس من المعقول أن تكون الأمكنة ضحية لإخفاقات البشر ، لان لتلك الأمكنة ذاكرة ورمزية يزداد بريقها بمرور الأيام والحقب ، فضلا عن وفائها لمن يديمها ، فهي حاضنة التاريخ الذي نفنى ولاتفنى سجلاته .

من الذي يترك بصمته التاريخية ليعيد تلك الألقاب والكنى لمدينة البصرة ؟ من يعيد لها العالمية التي تليق بها ؟ فكلام الخيال قد يكون أكثر إيقاعا" من دعوات الواقع ، فإذا لم نتحسس وجدانيا" أهمية هذه المدينة لايمكننا أن نعيدها كما تريد ، نريدها تستوعب الخيالات بشكلها ومضمونها ، فخصوصيتها كفيلة بان تعود بالعراق إلى بر الأمان .

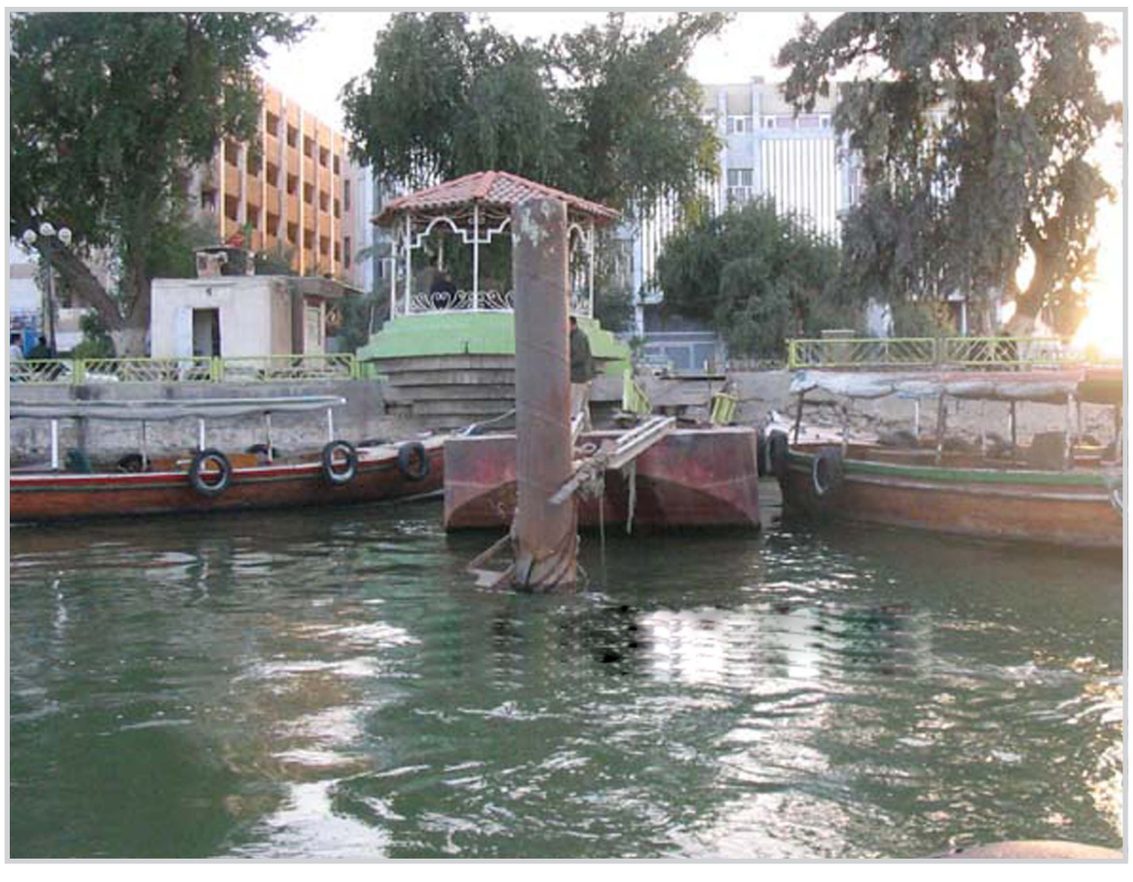

حقوق المرأة والعنف الأسري

ميعاد الطائي

تعد العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية الموروثة، من أهم الأطر الثقافية التي قدمت سندا وتبريرا للعنف ضد المرأة او ضد أفراد الأسرة فضلا عن القيم العشائرية والثقافة الذكورية التي تعلي من شأن الرجل وتعامل المرأة بدونية واحتقار وتضعها في الدرجة الثانية من السلم الإنساني . وما يميز العنف الأسري عما سواه من انتهاكات حقوق المرأة انه يمارس في فضاءات خفية وما يصلنا منه نسبة قليلة جدا، اذ تتكتم معظم المعنفات تحت مبررات منها العيب الاجتماعي والمحرماتِ والعرف الذي يعتبر التصريح به خيانة زوجية وكشفاً لأسرار العائلة التي يجب ان لا يطلع عليها احد لكي تبقى المرأة رازحة تحت وطأة الظلم والتسلط ولا يحق لها حتى التصريح ولا التلميح لما تتعرض له .

مفهوم العنف

وبالرغم من تعدد تعاريف كلمة العنف إلا أنها تعبر عن معنى واحد هو استخدام القوة المادية او المعنوية ضد الآخر، وتشير الموسوعة العلمية (Universals) أن مفهوم العنف يعني كل فعل يمارس من طرف جماعة أو فرد ضد أفراد آخرين عن طريق التعنيف قولاً أو فعلاً وهو فعل عنيف يجسد القوة المادية أو المعنوية. ذكر قاموس (Webster) أن من معاني العنف ممارسة القوة الجسدية بغرض الإضرار بالغير وتعني بمفهوم العنف هنا تعمد الإضرار بالمرأة أو الطفل، وقد يكون شكل هذا الضرر ماديا من خلال ممارسة القوة الجسدية بالضرب أو معنويا من خلال تعمد الإهانة المعنوية للمرأة والطفل بالسباب أو التجريح أو الإهانة. وهو سلوكٍ أو فعل يتسم بالعدوانية يصدر عن طرف قد يكون فرداً أو جماعة أو طبقة اجتماعية أو دولة بهدف استغلال وإخضاع طرفٍ آخر في إطار علاقة قوة غير متكافئة اقتصاديا وسياسياً ما يتسبب في إحداث أضرار مادية أو معنوية أو نفسية لفرد أو جماعة أو طبقة اجتماعية أو دولة أخرى.

أسباب العنف

أما أسباب العنف الأسري فتعددت آراء الباحثين فيها ،اذ يرى البعض ان السبب الاقتصادي يتقدم على الأسباب الأخرى حيث ان تدهور الحالة الاقتصادية تزيد المشاكل التي تتولد من عدم إمكانية تغطية النفقات وصعوبة تلبية الاحتياجات التي تحتاجها الأسرة الأمر الذي يجعل رب الأسرة يشعر بالإحباط وهو يعيش تحت وطأة ضغوطات نفسية تدفعه لارتكاب فعل العنف الأسري ضد أفراد أسرته التي لا يستطيع مواجهة احتياجاتها.

وبالعودة قليلا لسنوات الحصار الاقتصادي ضد العراق نجد آنذاك ازدياد حالات الطلاق وتفشي ممارسات العنف داخل الأسرة والمجتمع بصورة عامة. وهذا لا ينفي ممارسة العنف الأسري في العوائل الغنية لأنها ربما تعاني من سبب آخر من أسباب العنف كغياب عنصر التفاهم وتشويش قنوات الحوار وهذا يؤدي بالتالي إلى محاولة فرض وجهات النظر على الآخرين بأية طريقة حتى لو أدى ذلك إلى استخدام الضرب والتعنيف ،ويأتي هذا من عدم التفهم لاحتياجات العلاقة الخاصة بين الطرفين، وضعف الفهم المتبادل لاحتياجات كل طرف . ولقد حققت دراسة أردنية ما يشبه المركز الأول، عندما كشفت عن نسبة النساء اللواتي يتعرّضن للعنف الأسري، والتي بلغت٩٧ ٪.

فقد أظهرت دراسة أجراها الاختصاصي الاجتماعي الدكتور ذياب البداينة، حول العنف، نشرت نتائجها وكالة الأنباء الأردنية، أن ما نسبته (٩٧) بالمائة من أصل العينة التي مثلت «١٨٥٤» من النساء، وُزّعت في محافظات المملكة الأردنية، تعرضن لشكل من أشكال العنف.

ومن هذه العينة، (٥٤,٦) بالمائة تعرضن للعنف الشديد، و(٥٢) بالمائة يعتقدن بأنهن مهما فعلن لا يمكنهن الخلاص من وضعهن الراهن على اعتبار أن علاقتهن الزوجية يسودها العنف، فيما وافقت (٤١,٧) من النساء على أنه من حق الزوج معاقبة الزوجة إذا أذنبت. وتبين الدراسة أن (٩٧,٥) من النساء اللواتي يتعرضن للعنف لا يتصلن بالجهات الأمنية مع أن نسبة الزوجات اللواتي لا يشعرن بالأمن في بيوتهن بلغت (٥٤) بالمائة، فيما تشعر (٥٥,٣) بالمائة من العينة بالخجل مما يفعله بهن الزوج، وتقل النسبة قليلا للواتي يشعرن بالخوف من الزوج لتصل إلى (٥٣,٥) بالمائة، أما النساء اللواتي يشعرن بالخوف من كشف حقيقة إساءة أزواجهن لهن فتصل إلى (٥٢,٥) بالمائة حسب الدراسة .

وماذا بعد

ما نريد ان نقوله هنا أن وضع الإصبع على الخلل هو نصف الحل أما النصف الآخر للحل ولتجاوز دوامة العنف نحتاج إلى توعية أفراد المجتمع كافة على أساليب الحوار والتواصل، وتفهم احتياجات بعضهم البعض، على أن يتم البدء مع فئة المراهقين والمقبلين على الزواج والمتزوجين حديثا . ويمكننا التعويل على ما تقدمه مؤسسات المجتمع المدني من حلول لتخطي العنف وآثاره لمن يتمكن من الوصول إليهم وهذا يتأتى من قيام هذه المنظمات بنشر مفاهيم جديدة تناهض الممارسات التي تسيء للمرأة بصورة خاصة وللأسرة والمجتمع بصورة عامة .

ولا ننسى دور المؤسسة التربوية في التأثير على العقول والنفوس من خلال إدخال مفاهيم حقوق الإنسان في المناهج الدراسية الجديدة التي ستساهم في إلغاء المفاهيم والعادات البالية التي تسببت وتتسبب في بقاء دوامة العنف الأسري الذي آن الأوان لمجتمعنا ان يتخلص منها خاصة بعد تخلصنا من بعض المسببات التي كانت تخيم علينا وعلى المفاهيم العامة والقوانين البالية ونتمنى ان تكون المرأة ضمن خطة البناء التي يشهدها العراق الجديد ونطالب الحكومة الجديدة وخاصة ال (٢٥ ٪) من أعضاء البرلمان ان يطالبن بحقوق المرأة ويسعين إلى تشريع القوانين التي تحميها من العنف الأسري كي تستفيد النساء من نسبة التمثيل الرائعة التي منحنا إياها الدستور العراقي.